
العدد السنوي الخاص
٥
المنهل
ALMANHAL
مجلة العرب الأدبية
المدينة المنورة
دار الهجرة.. ومأرز الإيمان
المنهل العدد ٤٩٩ المجلد ٥٤ الربيعان ١٤١٣هـ - سبتمبر - أكتوبر ١٩٩٢م
ALMANHAL Issue No.499 VOl. No. 54 RABI I-II 1413H, SEP-OCT 1992G.

المـدينة المنورة أول عاصمة إ سلامية، وأول قاعدة عسكرية اتخذها الرسول ﴿ﷺ﴾، واستمرت من بعده في عهد الخلفاء الراشدين، يفد اليها المسلمون على اختلاف فئاتهم، لانها العاصمة، ولانها مقر لجميع المؤسسات الادارية، وقبيل ظهور الدولة الاموية وفي عهد الخليفة الراشد، علي بن أبى طالب، انتقلت العاصمة السياسية إلى مدينة الكوفة فى العراق.

ولما اعتلى الامويون سدة الحكم من سنة (٤٠-١٣٢هـ)، اتخذوا مدينة دمشق في بلاد الشام عاصمة لهم، ثم جاء ت دولة بنى العباس، وأسس أبـو جعفـر المنصور مدينة بغداد في العراق، واتخذها عاصمة للعباسيين. وبهذا السلوك السياسي الذى ظهر منذ عهد الخليفة علي، أصبحت المدينة المنورة في المفهوم السياسي، مدينة مثل بقية مدن الحجاز الاخرى، لولا أن من الله عليها بهجرة الرسول الكريم ﴿ﷺ﴾ وبنائه المسجد فيها، وبقائه هو وأصحابه حتى توفاهم الله، ودفنوا فيها وإلا ضاع مركـزها، ونتيجة لذلك حرص كل خليفة على بسط سلطانه على المدينة المنورة، والكعبة المشرفة، في مكة المكرمة، وأخذ كل واحد منهم يقاتل من يقف دون تحقيق رغبته، ولذا وقعت فتن وحروب كثيرة بين الطامعين فيها وفى مكة المكرمة، نظرا لمكانتهما المقدسة عند المسلمين، ومن هذا المنـطلق سلك خلفـاء بنى العباس مسلك غيرهم في بذل جهـدهم، بجعـل الحجاز (المدينة المنورة ومكة المكرمة) تحت نفوذهم، ولهذا سنعالج في هذه الورقات فترة الحكم للخلفاء الثلاثة الاوائل من بنـى الـعبـاس (عبـد الله السفـاح ١٣٢ - ١٣٦هـ، المنصـور ١٣٦-١٥٨هـ، والمهـدى- ١٥٨-١٦٩هـ) مركـزين على الاوضـاع السيـاسية للمدينة المنورة في عهدهم، ثم كيفية تعامل كل واحد من أولئك الخلفاء مع أهل المدينة فى ضوء الحياة السياسية.



د. غيثان علي جريس

رئيس قسم التاريخ كلية التربية جامعة الملك سعود - أبها

■ الخليفـة العبـاسى الأول الملقب بالسفـاح (١٣٢-١٣٦هـ)، عمـل في بادىء الأمر على اظهار سلطته في بلاد العراق، ثم ارسل الأمراء من قبله الى ولايات متعددة من البلاد الاسلامية، وكان الذى فاز بولاية المدينة المنورة، أو منطقة الحجاز بشكل عام، هو عمه داود بن علي، حيث ارسله السفاح وأوصاه بالحذر والحيطة تجاه أهل المدينة المنورة والسبب في هذه الوصية هو خوف الخليفة السفـاح من بعض العلويين الذى كانوا قد ستوطنوا المدينة، وبخاصة عبد الله بن الحسن الملقب (بالمحض) وولداه محمد

باب النساء

باب آل عثمان (جبريل)

الحجرة الشريفة

عمارة وتوس

المدينة المنورة .. ور

...قـــات من ذاكرة التاريخ ١٣٢-١٦٩هـ

ذراع (٥ر٦٧م)

المسجد في المرحلة السابقة

٢٥٣ ذراع (٥ر١٢٦م)

باب عاتكة (الرحمة)

باب السلام

٥ر١٦٧ ذراع (٧٥ر٨٣م)

...سجد النبوي الشريف حتى زيادة
...يفه المهدي العباسي

(الملقب بالنفس الزكية) وابراهيم، وجميع هؤلاء كانوا من أكثر العلويين ميلا للسياسة، والأهم من ذلك يقينهم بأنهم أحق من العباسيين في الخلافة[١]. ولم يكن الخليفة السفاح وأميره في المدينة المنورة، داود بن علي، غافلين عن نوايا وتطلعات عبد الله بن الحسن وأولاده في المدينة، فكانا يراقبان تحركاتهم ونشاطاتهم مع أهل المدينة وغيرهم، بل استخدم الخليفة السفاح أسلوب الملاينة واللطف معهم ومع بعض أفراد أهل بيتهم، فكان يودهم، ويتقرب منهم، ويدعوهم لزيارته في العراق، الى جانب اغداقه الأموال الطائلة والهدايا، واقطاعهم الاقطاعات الزراعية الكثيرة من أراضي المدينة المنورة وغيرها من الأراضى المجاورة لها كسبا لرضاهم، واتقاء لفتنتهم[٣].

وعندما جاء الخليفة العباسي الثاني أبو جعفر المنصور (١٣٦-١٥٨هـ)، تبدل الأمر، وتغيرت السياسة التي كان يسلكها الخليفة السابق تجاه المدينة وأهلها، فلجأ إلى استخدام العنف والشدة بدلا من اللين والمسايرة مع عبد الله بن الحسن وولديه، ومع جميع العلويين والمتعاطفين معهم من أهل المدينة المنورة[٤].

وكان الخليفة المنصور عندما يذهب الى الحج، ثم يأتى الى المدينة المنورة يأمر جميع العلويين بالحضور الى مجلسه ليتأكد من ولائهم له، ولا يقتصر الأمر على ذلك، وانما يأمر بحضور من يشك فى أمره، وقد يسأل عن شخصيات معينة يفتقدها في مجلسه، مثلما حدث أثناء زيارة له في عام ١٤٠هـ عندما لم ير (محمد النفس الزكية) وابراهيم، ولدى عبد الله بن الحسن، فطلب والدهما، ولما حضر سأل عنهما، فأبدى عبد الله بعض الأعذار ملتمسا لولديه العذر من الخليفة راجيا عدم غضبه منهما[٥]. ومن شدة ارتياب الخليفة المنصور من أهل المدينة المنورة أرسل بعض الجواسيس الى المدينة على هيئة تجار أو موظفين في الدولة، أو سدنة يعملون في المسجد النبوى، لكي يدونوا له ملاحظاتهم عن أهلها، وبخاصة عن العلويين ومواليهم والمتعاطفين معهم[٦]، ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل كان يبحث عن الأمراء الحازمين القادرين على ضبط المدينة واهلها وجعلها تحت حكمه[٧].

وفى ظل هذه السياسة، لم يستطع العلويون ومن ساندهم من أهل المدينة، ان يقفوا مكتوفي الايدى، وانما صاروا يخططون بشكل جاد للقيام بالثورة ضد الخليفة المنصور، وعندما أحس المنصور بخطورتهم،

أمر بترحيل عبد الله بن الحسن وعدد من أهل بيته من المدينة الى بغداد، في حين أن (محمد النفس الزكية) وأخاه ابراهيم هربا عندما سمعا بالخبر، ونجوا من الوقوع في يد المنصور، الذى قام بمعاقبة كل من حضر من العلويين حتى الموت، فقام محمد النفس الزكية بتأليب أهل المدينة ومن حولها، ثم الثورة ضد الخليفة المنصور سنة ١٤٥هـ[٨].

والغريب فى الامر أن الخليفة عندما علم ما قام به محمد النفس الزكية، لم يكن يتفاعل بشكل سريع فيرسل له من يحاربه، وانما تريث بعض الوقت، حتى ينجلي الموقف، ويعرف غرض النفس الزكية الذى أرسل له رسالة مطولة يذكر له فيها أحقية نسل علي بن أبى طالب بالخلافة، لمواقفه في الدفاع عن الاسلام، وتفانيه في خدمته، ولكونه أول من أسلم دون أن يسجد لصنم، ثم استطرد يعدد مناقب الطالبيين، ويبرز مثالب العباسيين واجدادهم، وفي نهاية الرسالة يطالب الخليفة المنصور بالتنازل عن الخلافة وتركها لأهلها من العلويين، فرد المنصور على تلك الرسالة برسالة مطولة نقض فيها حجج محمد النفس الزكية، مشيراً الى أحقية بني العباس بها، مستندا على العديد من المبررات التى دفعته لإرسال جيش يبلغ عدده أربعة آلاف جندى[٩]، بقيادة ولي عهده عيسى بن موسى العباسي، فساروا حتى قدموا الى المدينة، وحاربوا النفس الزكية، مستعينا بما انضم اليه من القبائل القاطنة في المدينة ومن حولها، ونتج عن ذلك قتل محمد النفس الزكية، ومطاردة فلول جيشه ومناصريه من القبائل[١٠]. ولم يتورع الخليفة المنصور بعد قضائه على محمد النفس الزكية من معاقبة كل من ساعد العلويين من أهل المدينة على القيام بثورتهم، حيث تذكر بعض الروايات التاريخية، انه أرسل واليه جعفر بن سليمان العباسى الى المدينة المنورة ليقبض على كل من ساعد محمداً من القرشيين فيضعه في السجن، أما من ثبتت ادانته من الموالي فتقطع يده عقابا له على مناصرته للعلويين ضد الخليفة وسلطانه[١١]. أما القبائل العربية التى انضم اغلبها الى العلويين، فلم يسلموا هم الآخرون من عقاب ابى جعفر المنصور، الذى أمر بجمع اربعمائة من أعيان قبائل مزينة وجهينة مع بعض العلويين، ثم انزل بهم العقاب الجماعي الذى كان متنوعا في اساليبه، فمنهم من سجن، ومنهم من ضرب حتى الموت[١٢].

ولم يسلم بعض رجال العلم والفقه والحديث من عقاب الخليفة المنصور، وأكبر دليل ما ذكرته بعض المصادر التاريخية عن حادثة فتوى للإمام مالك، عندما جاءه بعض أهل المدينة قبل ثورة محمد النفس الزكية، يستفتونه في حكم البيعة التي اعطوها للخليفة المنصور تحت الضغط والاكراه، فأخبرهم انه لا بيعة تحت إكراه، فأخذ بعض أهل المدينة بتلك الفتوى التى رأوا فيها مخرجا لحلهم من بيعة المنصور، وانضمامهم لمحمد النفس الزكية[١٣]، وعندما انتصر جيش المنصور على العلويين، ثم جاء جعفر بن سليمان العباسي أوقع العقاب بالامام مالك بسبب فتواه، فتذكر بعض الروايات أنه ضُرِبَ سبعون سوطا، وعذب حتى خلعت يده من كتفه، فبقى معاقا طول حياته[١٤].

وما قام به الخليفة المنصور أو واليه في المدينة المنورة ضد من ساعد العلويين ليس بالأمر الخفي حيث إن الوضع السياسى يحتم عليه وعلى ممثليه في المدينة وغيرها أن يحافظوا على كيان الدولة الناهضة ويقمعوا جميع الثورات التى تظهر ضدهم سواء أكانوا من قبيلة قريش أم غيرها.

وتذكر المصادر الاولية أن الذى أخذ القرار والتنفيذ بضرب الامام مالك هو أمير المدينة جعفر بن سليمان دون علم الخليفة المنصور، بل وتذهب بعض الروايات الى أبعد من ذلك فى أن الخليفة عندما سمع بما فعل جعفر لمالك ذهب الى المدينة المنورة، وعزل جعفر بن سليمان من الامارة، ثم استسمح (الامام مالك) موضحا له أنه لا علم له بما فعل جعفر بن

سليمان، ولم يكن لديه علم بما أنزل به من عقوبة، ثم قال له **«ان رابك ريب من عامل المدينة، أو عامل مكة، أو احد من عمال الحجاز في ذاتك، أو ذات غيرك، أو سوء سيرة في الرعية، فاكتب لي بذلك، أنزل بهم ما يستحقون، وقد كتبت الى عمالي بهذا، ان يسمعوا منك ويطيعوا كل ما يعهد اليهم، فانههم عن المنكر وأمرهم بالمعروف تؤجر على ذلك، وانت حقيق ان يطاع أمرك ويسمع منك»**[١٥].

والسؤال الذى يطرح نفسه هنا هل من المعقول أن يقوم جعفر بن سليمان بضرب الامام مالك ومعاقبته دون علم الخليفة المنصور؟ وللاجابة على هذا السؤال فانه من المستبعد صحة كل ما قيل، ولا يمكن أن يقدم جعفر بن سليمان على عمله فيما يتعلق بمالك الا باشارة من الخليفة والأدلة التى تجعلنا نجزم بأن الخليفة هو صاحب الكلمة الأولى والأخيرة في ضرب مالك عديدة، ومن أهمها:

(أ) أن ما سطرت المصادر الأساسية عن حنكة وسياسة الخليفة المنصور تشير الى أنه ذلك الرجل القوى الذى كان قابضا على زمام أمور الدولة بيد من حديد، وبهذا فإنه ليس من السهل أن يتصرف جعفر بن سليمان دون علمه خصوصا في ضرب إمام دار الهجرة ومؤسس المذهب المالكي، مالك بن أنس، وفي حالة أن نلقي نظرة أيضا على سياسة المنصور تجاه مراقبة الاوضاع في المدينة ومتابعة سير الأمراء الذين كان يرسلهم لضبط البلاد نستطيع أن نعرف مدى سيطرته على البلاد ومدى مركزيته في حكم الاجزاء البعيدة عن مقر الخلافة في العراق[١٦].

(ب) أن جعفر بن سليمان لم ينزل العقاب بالقرشيين والموالي الذين ساندوا العلويين حتى جاءه الأمر من المنصور في أن ينفذ أمر العقاب عليهم فيسجن القرشيين ويقطع أيدى الموالي[١٧]، وهذا الأمر دليل على أن جعفر بن سليمان لم يضرب مالكا الا باشارة من الخليفة.

(جـ) ان عزل جعفر بن سليمان من منصبه كأمير للمدينة مقابل ضربه الامام لم يكن في اعتقادى الا صورة من صور سياسة المنصور، وإلا لماذا أعطي امارة الحجاز فى عهد الخليفة المهدى (١٥٨-١٦٩هـ) الذى لا يستبعد أن يكون تعيينه بناء على وصية والده، الذى ثبت له اخلاصه في ضربه الامام مالك[١٨].

(د) أيضا أن من يتابع الفترة الزمنية التى أعطى فيها الامام مالك فتواه كانت في منتصف عام ١٤٥هـ/ ٧٦٢م مع أن جعفر بن سليمان لم يعين أميرا على المدينة الا فى ربيع الأول من عام ١٤٦هـ/ ٧٦٣م وهذه الفترة الزمنية تكون كافية للخليفة المنصور وجعفر بن سليمان في أن يحيكا الخطة في ضرب مالك، وبالتالي يذهب الخليفة ليستأذن من مالك فيما حل به ثم يعزل الامير وبهذا يكون قد ظهر أمام الرأى العام بأنه يحترم ويجل العلماء ويدافع عنهم هادفا الى اظهار نفسه بالمدافع عن رجال العلم ليكسب رضا الناس وبالتالي الاستقرار، ولهذا قام بالالتقاء بمالك وطلب منه الصفح وأخبره ان ما جرى له من ضرب واهانة لا علم له به.

■ ورغم ان الخليفة المنصور كان صارما وقويا على الثوار ومن ساندهم، إلا أن المصادر التاريخية لم تنس بعض الجوانب الايجابية التى قدمها لأهل المدينة. فيذكر انه ذهب للحج ست مرات، وفي كل مرة كان يذهب الى المدينة فيلتقي بعلية القوم فيها فيسمع منهم، ويتفقد أحوالهم، ثم يوزع عليهم الكثير من الاعطيات والأرزاق المتنوعة[١٩]. وقد أشارت بعض المصادر المبكرة الى أن المنصور ذهب الى المدينة عام ١٤٠هـ فوزع على أهلها أعطيات حسنة، الا أن أشراف قريش نالوا نصيب الأسد من تلك الأعطيات، دون أن تذكر مقادير ذلك العطاء، الا

أنه شمل أيضا نساء قريش حيث ذكر أن بعضهن حصلن على صحائف الذهب والفضة مع الكساوي الجيدة[٢٠]. والمشكلة الظاهرة على هذه الأعطيات أنها كانت مخصصه لأهل المدينة وليست أيضا لجميعهم، وانما كانت غالبا لعلية القوم من القرشيين، وهذا العمل ربما يكون سياسة من الخليفة في أن يكسب الى جانبه بعض الشخصيات الهامة في المدينة المنورة لتكون عونا له على العلويين ومن ساندهم، أو ربما كان يسعى الى شراء قلوب أعيان المجتمع حتى لا يثوروا عليه ويساعدوا الثوار ضده.

■ ومن أعطيات وهدايا الخليفة المنصور ما أشار اليه الفسوي عندما ذهب الخليفة الى الحج عام ١٥٢هـ، وقام بتوزيع مقادير كثيرة من الأموال والهدايا على أهل المدينة، ومع أن الفسوي هو المصدر الوحيد الذى ذكر هذه الاعطيات والهدايا إلا أنه لم يعط توضيحا أكثر عن كميات ومقدار تلك الهبات، أو عن من حصل عليها من سكان المدينة[٢١]. أيضا كان للخليفة المنصور بعض الأعمال الخيرية التى تشمل بعض أفراد المدينة المحتاجين، فيذكر النويري بأنه أمر واليه في المدينة، زياد بن عبيد الله الحارثي، بأن يحرص على زيارة كبار السن والمعوزين من الرجال والنساء واعطائهم ما يحتاجون من كساء وغذاء، بل وأمره بأن يوزع بعض الأعطيات على النساء الأرامل، والأيتام والعميان في جميع نواحي مدينة الرسول ﴿ﷺ﴾[٢٢].

وكان الخليفة المنصور يتقرب من علماء المدينة، وبخاصة الامام مالك، فعندما يذهب الى الحجاز يحرص على مقابلته، وقضاء حوائجه، بل ويطلب منه القيام ببعض الأعمال الدينية، ومما يؤكد ذلك انه طلب منه احدى المرات ان يضع منهاجا لادارة الدولة يقوم على أسس دينية سليمة حيث قال: «يا ابا عبد الله ضع هذا العلم - يقصد علم الامام مالك - ودونه ودون فيه كتبا وتجنب شدايد عبد الله بن عمر ورخص عبد الله بن عباس وشواذ ابن مسعود، واقصد الى أوسط الأمور، وما اجتمع عليه أئمة الصحابة، رضي الله عنهم، لنحمل الناس على علمك وكتبك ونبثها في الامصار»[٢٣].

■ ومن بعد الخليفة المنصور جاء ولده الخليفة المهدى (١٥٨-١٦٩هـ)، فلم يكن يقابل مثل المشكلات والثورة التي قابلها سلفه من قبل، وانما على العكس من ذلك فقد وجد حكما مهيئا لأن يتخذ سياسة مغايرة لمن سبقه، فلم يكن هناك اصطدامات أو حروب عسكرية يسعى الى المساهمة فيها، ولم يكن هناك ثورات يقوم بالتصدى لأصحابها، وانما كان عليه أن يقوم ببعض المساهمات الحضارية التي يصون بها أوضاع دولته، وكان من ضمن المساهمات التى اتخذها النظر لأهل المدينة المنورة من حيث المكان والسكان فعمل على التقرب منهم عن طريق العطايا والهبات، كذلك أقام بعض المشاريع العمرانية، والاصلاحات الاجتماعية.

فعندما تولى المهدي الخلافة عام ١٥٩هـ، ولى المغيرة بن خبيب الزبيرى مهمة توزيع بعض الأعطيات والهدايا على أهل المدينة، ويذكر أنه زاده ألف فريضة يفرضها لمن شاء من سكان المدينة[٢٤]. ولم يكن يتوقف الخليفة المهدى عند ما سبق ذكره، وانما أعطى بعض أهالي المدينة الاقطاعات الزراعية، فيذكر أنه أقطع الحسن بن ابراهيم بن عبد الله بن الحسن العلوي مالا من ديوان الصوائف بالمدينة المنورة، كما تشير بعض الروايات الى أنه أعطى المغيرة بن خبيب الزبيرى عيونا وأرضا زراعية ببعض نواحي المدينة[٢٥]، ثم انه لم يقتصر في اعطياته على الأراضى الزراعية والعيون وما شابهها، وانما كان أيضا يدفع المبالغ الكثيرة لمن يأتيه الى العراق من عرب المدينة المنورة، فتذكر بعض الروايات انه استقبل في احدى المرات الحسين بن على بن الحسن بن علي بن أبى طالب فأكرمه وأحسن وفادته، ثم اعطاه مبلغا قدره أربعون ألف دينار[٢٦]، ومثل هذه التصرفات من الخليفة المهدي ربما تكون عائدة الى طبعه وحبه للخير، وربما تكون عائدة الى علاقاته مع بعض رجال

المدينة المنورة كالمغير الزبيري، حيث يذكر أن علاقته به كانت قوية، ولكن لابد أن تصرفاته أيضا مع بعض رجال العلويين على وجه الخصوص، كانت قائمة على مبدأ سياسي حيث كان يهدف الى أن يحوى المعارضين، ويستبدل غضبهم بالمحبة باعطائهم الهدايا، ويظهر جليا فيما قدمه لكل من الحسن بن ابراهيم، والحسن بن على من العلويين[٢٧].

■ وفى عام ١٦٠هـ حج الخليفة المهدي، ثم وزع أموالا كثيرة على سكان المدينة، ويشير الطبري الى تلك الأموال فيذكر ان الخليفة أحضر معه من العراق ثلاثين مليون درهم ومائة وخمسين الف ثوب، وجاءه من مصر ثلاثمائة الف دينار، ومائة الف دينار من اليمن، فوزع اكثرها على سكان المدينة ومن حولها[٢٨]، وكون الطبرى يذكر هذه الرواية، فهو لم يوضح لنا طريقة توزيعها، ولا مقدار العطاء لكل فرد أو أسرة في المدينة، مع أن الأرقام المشار اليها خيالية في مقاديرها، ولكن لم يكن الطبري هو الوحيد الذى أشار اليها، وانما جاء بعده عدد من المؤرخين اشاروا الى توزيع تلك الأموال على أهل الحجاز، وبخاصة سكان المدينة المنورة[٢٩].

ولم تكن أعمال الخليفة المهدي مقتصرة على توزيع المال والثياب على أهل المدينة في سنة ١٦٠هـ، وانما بعض المصادر التاريخية المبكرة تذكر أن في تلك السنة نفسها أمر الخليفة ببناء بيوت للعجزة والمرضى في جميع أنحاء المدينة المنورة، واجزل العطايا والهبات الى كل المرضى والمجذومين بها[٣٠]، وأمر أيضا بتصدير الحبوب، وبخاصة القمح من مصر الى أهل المدينة المنورة، بعد أن كان قد قطعه عنهم أثناء مساندتهم لثورة محمد النفس الزكية في عهد والده[٣١]، ولأن المهدي كان يدرك أن تصدير الحبوب من مصر الى المدينة كان لا يسد حاجة سكانها، فأمر بنهر الصلة من مدينة واسط من العراق بأن يعمر وتزرع الأراضى من حوله ثم يرسل خمسا الانتاج من محصوله الى أهل المدينة، وأن تكون هبة سارية المفعول لمدة خمسين سنة[٣٢]. ومن يلقي نظرة على قائمة الخراج التى أوردها ابن قدامة، في كتابه الخراج، عام ٢٠٤هـ يجدأن مقادير محاصيل نهر الصلة كانت الف كر من الحنطة، ٣١٢١ كر من الشعير، ٥٩٠٠٠ درهم، وبهذا لو حاولنا معرفة ما كان يرسل الى أهالى المدينة وعلى ضوء السياسة التى رسمها المهدي، فإننا نجد نصيبهم كالآتي: [٣٣]

١٠٠٠ × ٢/٥ = ٤٠٠ كر من الحنطة.

٣١٢١ × ٢/٥ = ١٢٤٨٫٤ كر من الشعير.

٥٩٠٠٠ × ٢/٥ = ٢٣٦٠٠ درهم.

واستمرت أعمال الخليفة المهدي تجاه أهل المدينة، اذ لم تتوقف عند زيارته لها في عام ١٦٠هـ، انما كرر الزيارة في عام ١٦٤هـ، وانفق أموالا طائلة على أغلب سكان المدينة، فيذكر لنا ابن بكار ما حدث معه أثناء ذهابه الى المدينة في تلك السنة، فبعد وصوله اليها اجتمع بأعيان قريش وفقهاء وعلماء المدينة، ثم أمر أحد أصحابه، وهو المغيرة بن خبيب الزبيري، فوزع أموالاً كثيرة عليهم حتى **«أصاب مشيخة بني هاشم، أكثرهم خمسة وستون دينارا، واقلهم خمسة واربعون دينارا، ومشيخة القرشيين، اكثرهم خمسة واربعون دينارا، واقل القرشيين سبعة وعشرون دينارا، ومشيخة الأنصار اكثرهم سبعة وعشرون دينارا، وأقل الانصار سبعة عشر دينارا، والعرب اكثر من الموالي، ومشيخة الموالي خمسة عشر دينارا»**[٣٤].

■ ومن هذا النص، الذى أورده ابن بكار، نستنتج أن الخليفة وزع تلك الأموال على مستوى القرابة من أهل بيته، إذ كان بنو هاشم ثم القرشيون هم من الأوائل في الحصول على النصيب الأكبر من تلك التوزيعات، ومع أننا لا نعلم المجموع الكلي الذى تم توزيعه، إلا أنه بالتأكيد كان كثيرا جدا لأن ابن بكار نفسه ختم حديثه بذكر عدد الذين استفادوا من تلك الأموال في المدينة المنورة وما حولها، فقال: ان عددهم يزيد على الثمانين الف شخص[٣٥].

ومن جانب آخر يتضح لنا أن الخليفة المهدى كان يعير أهل المدينة كل الاهتمام، فلم يكن يكتفي بتلك المبالغ التي ذكر ابن بكار أنه وزعها سنة ١٦٤هـ، وانما هناك صورة أخرى يرويها لنا ابن قتيبة، فيذكر أنه في سنة ١٦٧هـ تم الالتقاء بين الخليفة المهدي وامام دار الهجرة مالك بن أنس، فكان الأخير قد أوصى الخليفة المهدي بأن يكون جوادا كريما على أهل الحجاز وخاصة أهل المدينة، ثم ذكره بالحاجة الماسة التى هم فيها من ضيق العيش، مع تذكيره بأنهم أهل مدينة رسول الله ﴿ﷺ﴾، فلم يكن رد الخليفة عليه إلا أن قال «صدقت فيهم وبررت، وحضضت على الرشد، فأنت أهل أن يطاع أمرك ويسمع قولك، فأمر لهم بخمسة أبيات مال، البيت عندهم خمسمائة ألف، وأمر مالكا أن يختار من تلاميذه رجالا يثق بهم، ويعتمد عليهم يقسمونه على أهل المدينة»[٣٦].

■ ومن يقف عند النصين اللذين ذكرهما كل من ابن بكار وابن قتيبة أثناء زيارة الخليفة المهدي للحجاز في عامي ١٦٤هـ و١٦٧هـ يجد أن الأعطيات التى أعطاها الخليفة لم تكن إلا على أهل المدينة دون أن يظهر أى ذكر لأهالي المدن الأخرى في أرض الحجاز، ولهذا فان هناك أكثر من احتمال في أن المصادر الأولية أغفلت ذكر هباته وأعطياته تجاه أهل مكة والطائف وجدة وغيرها من المدن، أو أنها لم تهمله لأنه لم يكن يعطيهم شيئا وانما أعطى أهل المدينة لأهداف سياسية وخصوصا بعد تذكر تلك المواقف التي وقفها أهل المدينة في عهد والده ولأن من كان يترأس الثورات في عهد محمد النفس الزكية هم سكان وقبائل المدينة، ثم لوجود الامام مالك الذى كان الخليفة المهدي يكن له كل تقدير واحترام، كل هذه الأمور جعلت الخليفة يسلك سياسة الحنكة والدهاء وذلك باعطاء الأعطيات السخية لأهل المدينة بصفتهم يشكلون عليه خطرا وقد يثورون ضده كما ثاروا مع محمد النفس الزكية ضد والده من قبله، وبهذا رأى أنه من الأحسن شراء قلوبهم بتلك الأموال التى يوزعها عليهم وفعلا هذا ما كان يتطلع اليه وقد نجح في سياسته، فلم نجد أى مصدر تاريخي يذكر قيام أى حركة أو ثورة سياسية من قبل أهل المدينة في عهده.

ولم يكن الخليفة المهدى يُقصر في يوم ما عن اتصاله بعلية القوم في المدينة، وبخاصة الفقهاء والعلماء الذين كان يتزعمهم امام دار الهجرة، الامام مالك بن أنس، فكان كلما ذهب الى المدينة المنورة يحرص على الالتقاء بهم ومشاورتهم في العديد من الأمور، فتذكر بعض المصادر انه أراد هدم الكعبة واعادة بنائها الى ما كانت عليه في عهد عبد الله بن الزبير[٣٧]، واستشار فى ذلك علماء المدينة، فقال له الامام مالك «**دعها فاني أخشى أن يتخذها الملوك ملعبة فتركها الخليفة**»[٣٨]، نزولا عند رأى الامام، وفي رواية أخرى، ان الخليفة المهدي استشار فقهاء المدينة المنورة في نقض منبر الرسول ﴿ﷺ﴾ واعادة صنعه، فقال الامام مالك، ان هذا المنبر مصنوع من خشب الطرفاء، وأنه يخاف عندما ينقض أن ينكسر ولا يصلح مرة أخرى، فتركه الخليفة بعد مشورة الامام مالك.

وقد اهتم الخليفة المهدي ببعض الاصلاحات والمشاريع الخيرية في المدينة المنورة، ففي عام ١٦٢هـ عمل على توسعة المسجد النبوي، واعطى واليه على المدينة، جعفر بن سليمان العباسي، صلاحية الاشراف العام على تنفيذ تلك التوسعة، ويصف لنا ابن النجار الخطوات التي اتبعها جعفر في تنفيذ رغبة الخليفة المهدي، وذلك بذكر كتابة نقشها جعفر بن سليمان في صحن المسجد، بعد الانتهاء من العمل كان قد ابتدأها بالبسملة والحمد ثم الدعاء للخليفة المهدى الذى تولى الانفاق على ذلك المشروع المقدس، ثم ذكر العام الذى تمت فيه بداية تنفيذ التوسعة وذلك العام الذى انتهت فيه فيقول «... **وكان مبتدأ ما أمر به عبد الله المهدي، محمد أمير المؤمنين اكرمه الله من الزيادة في مسجد رسول الله ﴿ﷺ﴾ في سنة اثنين وستين ومائة، وفرغ منه سنة**

خمس وستين ومائة، فأمير المؤمنين أصلحه الله يحمد الله على ما أذن له واختصه به من عمارة مسجد رسول الله ﴿ﷺ﴾ وتوسعته حمدا كثيرا، والحمد لله رب العالمين على كل حال»[٣٩].

وللخليفة المهدى بعض الاصلاحات العامة الأخرى، فيذكر انه أنشأ بعض الحمامات والبرك العامة في أماكن عديدة من المدينة المنورة، وبخاصة حول المسجد النبوى، ومن اهتماماته في تصميم الحمامات انه كان يوجد حمامات خاصة بالرجال، وأخرى خاصة بالنساء[٤٠].

■ **وخلاصة القول**: ان خلفاء بني العباس الأوائل (السفاح والمنصور، والمهدي) قد اختلفوا في مواقفهم تجاه المدينة المنورة وأهلها، فالخليفة السفاح، كان يستخدم أسلوب اللين وشراء قلوب الناقمين عليه، وعبد الله بن الحسن (الملقب بعبد الله المحض) وأهل بيته كان من الحاقدين على البيت العباسى، ويرى أنه أولى منهم بالخلافة، ولمعرفة السفاح لذلك فكان يداهنه حتى استطاع ان يبقي على الثورة التى قام بها ولده، محمد النفس الزكية، فى عهد الخليفة المنصور الذى جاء بعد السفاح، وتغيرت سياسة المداهنة عند المنصور، فلم يكن يستخدم مع العلويين، ومن ساندهم من قبائل المدينة، الا القمع والضرب والتنكيل، وبالتالى أدى ذلك الى ظهور ثورة محمد النفس الزكية عام ١٤٥هـ، فاستطاع المنصور القضاء على قائد الثورة، محمد النفس الزكية، بل واستطاع انزال العقوبة بكل من سانده من أهل المدينة. وبعد ذلك دانت أرض المدينة للحكم العباسي، فلم يكن الخليفة المنصور ينساهم من بعض الصدقات والهبات، فكان يذهب اليهم أثناء حجه ويسمع من أعيانهم وفقهائهم، ويوزع عليهم الأعطيات ويحل مشاكلهم. ولكن لم يكن الخليفة المنصور مثل ولده المهدي، فلقد جاء الأخير فلم يكن امامه عوائق، وانما تولى دولة مترامية الأطراف، وخزانة مليئة بالأموال، فبذل بعض الجهود الحسنة تجاه أهل المدينة، فوزع عليهم صدقات كثيرة، وأموالا طائلة، وقام بتوسعة المسجد النبوى، وقدم بعض الاصلاحات الخيرية والاجتماعية تجاه الأرض والسكان في مدينة الرسول ﴿ﷺ﴾.

الهوامش والتعليقات

(١) حول الامارة والأمراء في الحجاز انظر مقالنا في مجلة العصور، عدد يناير، عام ١٩٩٢م.
(The Governorship in the Higaz Dunng the Early Abbasid Period 132A.H-232A.H)

(٢) لقد واجه العلويون العديد من الصدامات العسكرية في عهد خلفاء بني أمية، ومن أعظم تلك الصدامات، موقعة كربلاء في عهد يزيد بن معاوية، التي قتل فيها العديد من بيت الحسين بن علي بن أبي طالب، ونقل من بقي حيا الى المدينة المنورة، وعند ظهور بني العباس بدعوتهم السرية في أواخر الحكم الأموى، كان بعض أفراد البيت العلوى يعتقدون ان الأمر السياسى سيكون لواحد من بيتهم، ومن ضمن اولئك الأفراد عبد الله بن الحسن وولداه محمد وابراهيم، للمزيد من التفصيل عن العلويين والعباسيين في أواخر الحكم الأموي، وظهور الحكم العباسي انظر: محمد بن جرير الطبري، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم (القاهرة ١٩٦٠م) جـ٧، ص٤١٢ وما بعدها، أبو الفرج الأصفهاني. مقاتل الطالبيين، تحقيق السيد أحمد صقر (بيروت، تاريخ النشر غير معروف) ص١٧٩ وما بعدها، أحمد شلبي، التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية، ط٤ (القاهرة ١٩٧٠م) جـ٣، ص١٩-٦٢.

(٣) للمزيد من التفصيلات عن سياسة السفاح مع العلويين في المدينة المنورة، انظر: احمد بن يحيي البلاذرى، أنساب الاشراف، تحقيق محمد المحمودي (بيروت، ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م) جـ٣، ص٢٣٢، احمد بن محمد بن عبد ربه، العقد الفريد، تحقيق أحمد أمين وآخرين (القاهرة ١٩٦٧م) جـ٥، ص٧٤.

(٤) تذكر العديد من المصادر تعاطف بعض سكان المدينة مع العلويين، بل ومساندتهم ضد الخليفة المنصور، بل وضد بني العباس بشكل عام، للمزيد من التوضيح حول هذه النقطة انظر: الطبرى، تاريخ الرسل، جـ٧، ص٥٠٣ وما بعدها، البلاذرى، انساب الأشراف، جـ٣، ص٨٨ وما بعدها.

(٥) الطبرى، تاريخ الرسل، جـ٧، ص٥٢٢، البلاذرى، انساب، جـ٣، ص٨٥-٨٦.

(٦) حول سلوك الخليفة المنصور في نظام التجسس، وبخاصة تجاه العلويين في المدينة. انظر: البلاذرى، أنساب، جـ٣، ص٨٥-٨٦، الطبرى، تاريخ الرسل، جـ٧، ص٥١٩ وما بعدها، وانظر أيضا مقالنا «صور» من تطور نظام العيون (الاستخبارات) خلال القرون الاسلامية الاولى» جامعة عين شمس، مركز بحوث الشرق الأوسط، سلسلة دراسات، عدد (٨٩) ص٧-٩.

(٧) البلاذرى، أنساب، جـ٣، ص٨٥-٨٦، أبو عبد الله الزبير بن بكار، أخبار الموفقيات، تحقيق سامي العاني (بغداد ١٣٩٢هـ) ص٣٦٨، انظر مقالنا عن الامارة والامراء في مجلة العصور عدد يناير ١٩٩٢م.

الهوامش

(٨) للمزيد من التفصيل عن الثورة التي قام بها محمد النفس الزكية ضد الخليفة المنصور في المدينة، انظر، الطبري، تاريخ الرسل، جـ٧، ص٥٥٢ - ٦٠٩، مؤلف مجهول، العيون والحدائق، تحقيق ام. دي غوي (ليدن ١٨٦٩م) جـ٣، ص٣٤٩ - ٣٥١.

F- Omar- (Some Aspectsof the Abbasid period 132-193.A.H). Arabica, Vol. XXII (1975) PP. 170 FF;J.lassner. The Shaping of the Abbasid Rule (Princeton, 1980) PP.70ff.

(٩) انظر الرسائل التى تبادلها الخليفة المنصور مع محمد النفس الزكية، الطبرى، تاريخ الرسل، جـ٧، ص٥٦٦-٥٧١، فاروق عمر «الرسائل المتبادلة بين المنصور ومحمد النفس الزكية» مجلة العرب (١٣٩٠هـ/١٩٧٠) جـ١، ص٢١ وما بعدها.

(١٠) تشير الروايات التاريخية الى دور قبائل بنى سليم، وجهينة، ومزينة في مساندة محمد النفس الزكية ومناهضة جيش العباسيين، وللمزيد من التفصيل انظر، الطبرى، تاريخ الرسل جـ٧، ص٥٥٠ وما بعدها، البلاذرى، أنساب، جـ٣، ص٨٨ وما بعدها، مؤلف مجهول، العيون والحدائق، جـ٣، ص٢٣٥.

(١١) ابن بكار، أخبار الموفقيات، ص١٨٦، الطبرى، تاريخ الرسل، جـ٧، ٥٧٩.

(١٢) المصدر نفسه، جـ٧، ص٥٥٠، ٥٩٠

(١٣) للمزيد من التفصيل عن تلك الفتوى التي أدلى بها الامام مالك، انظر: الطبرى، تاريخ الرسل، جـ٧، ص٥٦٠، مؤلف مجهول، العيون والحدائق، جـ٣، ص٢٩٨، جلال الدين السيوطي. تاريخ الخلفاء، تحقيق محي الدين عبد الحميد (القاهرة، ١٣٧١هـ) ص٢٦١.

(١٤) انظر، أبو عبدالله محمد بن مسلم ابن قتيبة الامامة والسياسة، تحقيق، طه الزيني (بيروت ١٣٧٨هـ) جـ ٢، ص١٤٨، الطبرى، تاريخ الرسل، جـ٧، ص٥٦٠، مؤلف مجهول، العيون والحدائق، جـ٣، ص٢٩٨.

(١٥) انظر أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض، ترتيب المدارك وتقريب المسالك بمعرفة اعلام مذهب مالك (الرباط، ١٤٠٣هـ) جـ٢، ص٩٨.

(١٦) من الأمراء الذين ارسلهم الخليفة المنصور الى المدينة المنورة، رياد بن عبيد الله الحارثي، والحسن بن زيد، ومحمد بن خالد القسري، وعثمان بن رباح المري، وعبد الله بن الربيع، انظر مقالنا في مجلة العصور عدد يناير ١٩٩٢م.

(١٧) ابن بكار، أخبار الموفقيات، ص١٨٦.

(١٨) لقد ترك الخليفة أبو جعفر المنصور لولده المهدي دولة مترامية الاطراف، خالية من الفوضى والاصطرابات الداخلية، الى جانب انه ترك له خزانة وافرة بالمال. علما انه صادر اموالا كثيرة من العلويين وغيرهم من الثوار في المدينة المنورة الا انه عندما حضرته الوفاة كان قد ترك بعض النصائح لولده، كأن يحسن الى بعض من أساءهم - الخليفة المنصور - وخصوصا من القرشيين فيدفع لهم الهدايا والاعطيات، بل ويوليهم المناصب الادارية، وكان جعفر بن سليمان ضمن من شملت عليه نصائح الخليفة المنصور.

(١٩) للمزيد من المعلومات، انظر، ابو العباس أحمد المقريزي، الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك (القاهرة ١٩٥٥م) ص٢٦-٣٨

(٢٠) انظر، أبو عبد الله الزبير بن بكار، جمهرة نسب قريش، تحقيق محمود شاكر (القاهرة، ١٣٨١هـ) جـ١، ص٣٠٣، قطب الدين مكي النهروالي، كتاب الاعلام باعلام بيت الله الحرام، تحقيق ف. ومستنفلد (بيروت ١٩٦٤م) ص٩١. انظر أيضا مقالنا الذى نشر في عدد مجلة المنهل المحرم ٤٩٧ ص ص ٨٢-٨٨ بعنوان «موقف خلفاء بني العباس الأوائل الحربية خلال عهد الحجاز (١٣٢-٢٣٢هـ)».

(٢١) أبو يوسف يعقوب بن سفيان الفسوي، كتاب المعرفة والتاريخ، تحقيق اكرم ضياء العمري (بغداد ١٣٩٤هـ) ص١٣٩.

(٢٢) شهاب الدين أحمد النويري، نهاية الارب في معرفة احوال العرب، تحقيق محمد أبو الفضل وآخرين (القاهرة، ١٣٤٢هـ) جـ٤، ص١٧.

(٢٣) ابن قتيبة، الامامة والسياسة، جـ٢، ص١٥٠، الطبرى، تاريخ، جـ٧، ص٥٣٩.

(٢٤) ابن بكار، جمهرة، جـ١، ص١٢٤ وما بعدها، وقد اشارت الى هذه النقطة مصادر ومراجع اخرى، أحمد بن علي البغدادى، تاريخ بغداد ومدينة السلام (القاهرة ١٣٤٩هـ) جـ١٣، ص١٩٤.

A.S. Tritton (No tes on the Muslim System of Pension) Bulletin of the school of Oriental and African studies, Vol. XVI (1954) PP. 170-2.

(٢٥) انظر، ابن بكار، جمهرة، جـ١، ص١٠٩، ابو عبد الله مصعب الزبيري. كتاب نسب قريش، تحقيق ليفي بروفنسال (القاهرة ١٩٥٣م) ابو عبد الله بن عبد العزيز البكري. معجم ما استعجم، تحقيق مصطفى السقا (القاهرة ١٣٦٤هـ) جـ١، ص١٦٦.

(٢٦) الطبرى، تاريخ، جـ٨، ص٢٠٠.

(٢٧) ومما يؤكد ما ذهبنا اليه هو ان الحسن بن علي بن الحسن بن علي بن أبي طالب لم يتورع عن القيام بثورة ضد الخليفة الهادى (١٦٩-١٧٠هـ)، الذى خلف الخليفة المهدي، وذلك لأنه لم يجد الهادي على نمط السياسة التى كان عليها المهدي، وانما كان شديدا على العلويين، وبخاصة في المدينة المنورة، فثار ضده في أواخر عام ١٦٩هـ. وبهذا نستطيع القول بأن الخليفة الهادي كان تقريبا مثل الخليفة المنصور حيث كان كل واحد منهما شديدا في سياسته ضد العلويين في المدينة المنورة وغيرها، في حين ان الخليفة المهدي كان قريبا في سياسته من الخليفة السفاح، وذلك بحبهما للمهادنة وشراء قلوب الرجال، الذين يخافون منهم، بالمال واعطاء العطايا والهبات، انظر تفصيلات اكثر. البلاذري، انساب الاشراف، جـ٣، ص٨٠-٨٣، ابن عبد ربه، العقد الفريد، جـ٥، ص٧٤.

(٢٨) الطبرى، تاريخ، جـ٨، ص١٣٣.

(٢٩) انظر في المصادر التى اشارت الى اعطيات المهدي لأهل المدينة عام ١٦٠هـ، المطهر بن طاهر المقدسي، كتاب البدء والتاريخ (باريس ١٩٦١م) جـ٦، ص٩٦، اسماعيل بن علي بن كثير، البداية والنهاية (بيروت ١٩٦٦م) جـ١٠، ص١٣٢، شمس الدين الذهبي. تاريخ الاسلام وطبقات المشاهير (القاهرة ١٣٦٩هـ) جـ٦، ص١٦٧، جمال الدين بن تغري بردي. النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، تاريخ النشر غير معروف، جـ٢، ص٣٦، عبد الرحمن بن خلدون. تاريخ ابن خلدون (بيروت ١٩٦٦م) جـ٣، ص٤٤٤.

(٣٠) انظر، المقدسي، البدء والتاريخ، جـ٦، ص٩٦، عز الدين بن الاثير، الكامل في التاريخ (بيروت ١٣٨٥هـ) جـ٦ ص٥٧.

(٣١) ابن بكار، اخبار الموفقيات، ص٣٣٩، ابن كثير، البداية والنهاية جـ١٠، ص٢٦٢.

(٣٢) انظر أبو الفرج قدامة، كتاب الخراج (ليدن ١٨٨٩م) ص٢٤١-٢٤٢.

(٣٣) انظر كتاب الخراج، لقدامة، ص٢٤١-٢٤٢. والكر هو اكبر احجام المكاييل عند العرب، وقد يعادل ١٦٥٠ غرام بالاوزان الحديثة. انظر، محمد ضياء الدين الريس، الخراج والنظم المالية للدولة الاسلامية. ط٣ (القاهرة ١٩٦٩) ص٣٥٥ وما بعدها.

(٣٤) ابن بكار، جمهرة، جـ١، ص١١٠-١١١.

(٣٥) المصدر نفسه.

(٣٦) ابن قتيبة، الامامة والسياسة، جـ٢، ص١٥١-١٥٢

(٣٧) للمزيد من التفصيل حول تاريخ الكعبة، انظر ابو الوليد محمد الازرقي، اخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، تحقيق رشدي ملحس (مكة مكرمة ١٤٠٣هـ) جـ١، ص١٥٧ وما بعدها، ٢٠١-٢٣٠

(٣٨) ابن كثير، البداية والنهاية، جـ١٠، ١٣٢

(٣٩) محمد بن محمود النجار، الدرة الثمينة في تاريخ المدينة (مكة مكرمة، تاريخ النشر غير معروف) ص٣٧٤-٣٧٥. (ملحق بآخر الجزء الثاني من كتاب شفاء الغرام للفاسي).

(٤٠) انظر ابو اسحاق ابراهيم الحربي. كتاب المناسك وأماكن طرق الحج ومعالم الجزيرة (الرياض، ١٣٨٩هـ) ص٤٠٩.